

الديموقراطية وآليات العمل السياسي (1)

محمد جلال هاشم

الديموقراطية وإشكالية التنظيم

سنحاول أدناه أن نجيب على مجموعة من الأسئلة تتعلق بالديموقراطية والتنظيم. ونعني بالتنظيم ذلك الإطار الاجتماعي ذي الطبيعة السياسية على وجه الخصوص، وإن كان التنظير يشمل كل أشكال التنظيم في عمومياته. فهل فعلاً تحتاج الديمقراطية إلى تنظيمات تقوم في جوهر فكرها وممارستها على الديمقراطية، وبدونها لن تتمكن الديمقراطية من إيتاء أكلها؟ وهل فعلاً بغير ذلك نكون كمن يطلب من الفسيخ أن يتحول إلى شربات من باب التمني، وهيهات؟ إذا كان هذا كهذا، ما هو يا ترى شكل ونوع هذه التنظيمات التي لا بد لنا أن نخطها إذا ما أردنا تسريع وتائر التحول الديمقراطي؟

التنظيم: رؤية ثقافية الانتماء التنظيمي ليس سوى مرحلة من مراحل الهوية. وكنا قد ذكرنا في دراسات سابقة، عندما تناولنا موضوع الهوية كيف أن الهوية لا تتحقق إلا بتحقيق الذات، والذي بدوره لا يتأتى إلا بالاستقلالية. فالمرء الذي ينشأ في، ومنسجماً مع، هويته لا يعني أنه قد حقق استقلاليته، ما لم يتمكن من تحويل إحساسه الداخلي العميق بهويته إلى وعي مباشر. وهذا هو المدخل الذي من خلاله يتم وعي المرء بنفسه ضمن مجموعة، وفي سياق اجتماعي يعينه، فيبدأ الفكر من الشخص إلى أن يتطور ليولد لنا الفكر الوطني بخاصة والإنساني بعامة. فهناك هوية تقوم على الفطرة التي ينشئ الوالدان عليها أبناءهما، وما يلعبه المجتمع المحيط من دور داعم أو ناقض لهذه الهوية. ثم هناك مرحلة التماهي، والتي تشكل بداية وعي الإنسان بهوية الفطرة التي نشأ عليها، وتبدأ بمراجعة أسس هوية الفطرة، فإذا سعد بها، حقق ذاته، وبالتالي كان في وضع إيجابي لتحقيق استقلاليته. أما إذا لم يسعد بها، فينحو الإنسان إلى اختراع أو ابتداع هوية أخرى لها وشيجة تاريخية أو أيديولوجية أو كلاهما بخلفية نشأته الأولى. ويأتي التنظيم كجزء من هذه العملية، حيث يقوم المرء وبوعي تام (افتراضاً) باختيار هوية واعية ذات أساس نظري (افتراضاً)، تكون مستقلة عن كلاً هوية الفطرة والتماهي، حتى لو جاءت منسجمة معهما أو جعلتهما أساساً لها. التنظيم السياسي التنظيم، سياسياً كان أو غير سياسي، ما هو إلا شكل مضبوط من التفاعل الثقافي والاجتماعي في أطر محدودة ومضبوطة. وهدف التنظيم، أيّاً كان، هو توجيهه، أو إعادة تشكيل صورة التفاعل الثقافي في إطار مجتمعي لتحقيق قيم مادية ذات أساس أخلاقي، وذلك لتحقيق درجة عليا متعمدة من ممارسة السلطة بغية إنفاذ برنامج يعينه. فالمحصلة النهائية للتفاعل الثقافي هو إنتاج وممارسة السلطة. والتفاعل الثقافي كمؤد للسلطة نوعان، حسبما أشرنا إلى ذلك أعلاه: الأول تفويضي (يبدأ من القاعدة ويصعد إلى أعلى)، وتُمارس فيه السلطة دون استخدام للقوة المادية القسرية، وإن كانت تنزع للنمط القسري كدالة تطوّر؛ وهذا هو أساس العلاقات الاختيارية، مهما اتصفت بالإلزامية. أما النوع الثاني فهو طبيعة تحويلية (أي سياسية؛ أي يبدأ من أعلى وينزل إلى أسفل)، وتُمارس فيه السلطة عبر استخدام القوة المادية القسرية، ولا تقوم العلاقات فيه على أساس الاختيار، بل على الإخضاع. وتحكم النوعين علاقة جدلية. فالتفاعل الثقافي القاعدي يفرز لنا تنظيمات ذات سلطة تفويضية وذات أساس أيديولوجي ومادي وروحي لينتظم عبرها المجتمع، مثل الزواج، الأسرة، القبيلة، فضلاً عن مجمل العادات. ويكون هدف هذه التنظيمات تيسير ممارسة تفويضية، قياسية للسلطة التي تكون اختيارية في جوهرها، مع نزوعها إلى استخدام القوة المادية القسرية في مضمار عروجها وتطورها حسب البيئة التاريخية. كما يفرز التفاعل الثقافي السياسي تنظيمات ذات سلطة تحويلية وذات أساس أيديولوجي ومادي وروحي، لضبط وتوجيه حركة المجتمع عبرها. ويكون هدف هذه التنظيمات تيسير ممارسة تحويلية، إخضاعية للسلطة في جوهرها، مع نزوعها إلى عدم استخدام القوة المادية القسرية. وتأتي مؤسسة الدولة على قمة هذه المؤسسات؛ وأدناها درجة التنظيمات السياسية. وتكمن العلاقة الجدلية بين النوعين في أن ممارسة السلطة التفويضية بدعم مؤسسي من القوة المادية القسرية يزيد من درجة الانضباط، الأمر الذي يضيف قوة ثقافية على المنظومة الاجتماعية؛ كما تزيد ممارسة السلطة التحويلية بدرجة أعلى من القوة الاختيارية القاعدية من إنسانية أعضاء المنظومة الاجتماعية، وتحقق بالتالي إنسانيتهم. والتنظيم يختلف أيما اختلاف عن الفكر، وربما لا تكون هناك علاقة البينة بينهما. فالتنظيم يحتاج إلى هدف، وليس بالضرورة إلى فكر. خذ تنظيمات المافيا مثلاً لذلك، إذ عُرفت بقوة سبك وشكيمة التنظيم بما يفوق أي حركة سياسية فكرية أو اجتماعية (هذا مع أن تنظيمات المافيا نفسها في رأينا ذات خصيصة اجتماعية ولو قامت أساليبها على الإجرام)، ومع هذا لم يؤثر عنها أي فكر بخلاف هدفها في احتياز أكبر قدر من الثروة والسلطة. التنظيم والتفاعل الثقافي: منظور معلوماتي يتلخص التفاعل الثقافي الكامن في بنية وآليات التنظيم في نتائج انتقال المعلومة من فرد إلى آخر، ومن مجموعة إلى أخرى، ومن فرد إلى مجموعة، ومن مجموعة إلى فرد. المعلومة هي كل ما يمكن أن يفكر فيه الإنسان، بصرف النظر عن محفز التفكير، أكان حدثاً خارجياً أم انبثاقاً داخلياً في الذهن. والهدف من انتقال المعلومة في سياق التفاعل الثقافي هو إنتاج وممارسة السلطة. وعلى هذا يكون التنظيم هو ذلك الجهاز الذي عبره يتم انتقال المعلومة، ومن ثم التفاعل بها معها. وتتصف التنظيمات التفويضية بصورة أساسية بالانتقال الأفقي للمعلومة، وهذا هو مردّ العلاقات الاختيارية. كم ينحصر في إطار ذلك الانتقال الرأسي للمعلومة في أطر ضيقة، مثل العلاقة بين الأبناء والوالدين، الشباب ومجلس الشيوخ إلخ. أما التنظيمات التحويلية، فآلية انتقال المعلومة فيها يتميز هنا بصورة أساسية في كونها رأسيّة؛ وهذا هو سبب تجويز استخدام

القوة المادية القسرية. هذا بينما يتم انتقال المعلومة أفقياً في أطر ومستويات ضيقة، داخل لجنة واحدة مثلاً. ويكمن الهدف الأقصى في المحصلة النهائية للأداء التنظيمي عبر الانتقال الرأسي للمعلومة في تحقيق أكبر قدر من الانتشار الأفقي القاعدي للمعلومة نفسها (مثل ذبوع وانتشار فكر بعينه؛ أو ذبوع وانتشار فائدة سلعة تجارية بعينها). وهذا من شأنه أن يتيح درجة أكبر من ممارسة السلطة على المستوى السياسي (الدولة أو القطاع الرأسمالي المعني مثلاً). (الالتزام التنظيمي بين الاختيار والإخضاع الالتزام التنظيمي في أساسه ثبات على المبدأ باستنارة مع مثابرة لا تعرف الونى في سبيل تحقيق أهداف سامية يدعو لها التنظيم. ولكن مع هذا يمكن أن يتم الانحراف بالتنظيم، وذلك بتحويل الالتزام من موقف اختياري في المقام الأول إلى موقف إخضاع في عاقبة أمره. ويتحقق هذا التحول من الاختيارية إلى الإخضاعة عبر سلسلة من مُشكلات السلوك البافلوفي (نسبة إلى بافلوف Pavlov الذي اكتشف نظرية المثير والاستجابة عن الكلاب فكانت أساس المدرسة السلوكية في علم النفس)، والتي لا يمكن أن يصيب المرء فيها نجاحاً دون أن يمر هذا النجاح عبر بوابة انتهاك إنسانية الشخص المخضوع. ويبدأ هذا التشكيل السلوكي في باكر شباب الشخص المنتمي إلى التنظيم في عملية يُستغل فيها إيمانه الغض بمبادئ التنظيم وأفكاره، مع سداجة لا تخفى في تلك السن المبكرة، فضلاً عن استعداده للتضحية مع مزيد من نزق وسورة الشباب. وهذه عملية تحرير أيديولوجي يمكن أن تُطلق عليها مسمى البيدوفيليا الأيديولوجية أو السياسية (political pedophilia البيدوفيليا هي تحرير الكبار بالصغار بغية مواقعتهم جنسياً) بدالة انتشارها في العمل السياسي الاعتقادي. وأكثر ما عُرفت بهذه التكتيكات التنظيمات الاشتراكية بعموم من شيوعية وغيرها، فضلاً عن التنظيمات العقديّة الدينيّة، الإسلاميّة منها بخاصة في عصرنا الزاهن. ويُعرف عن ضحايا هذا التحرير الفكري صعوبة الاعتناق من ربة التنظيم الذي انضوا أول أمرهم في صفوفه باختيارية تامة؛ فإذا بالأيام تتقلب بهم، فيضعف انتماءهم للتنظيم أو الرغبة في الاستمرار فيه، ولكن مع ذلك يعجزون عن مغادرة صفوفه إذ يكونون قد فقدوا مزية الاختيار التي لولا فضلها لما اختاروا الانضمام للتنظيم في المقام الأول. وحتى الذين يخرجون عن مثل هذه التنظيمات، كثيراً ما ينتهي بهم الأمر إلى الدوران في فلكها، أو تجدهم قد انضموا إلى نقيض تلك التنظيمات فكرياً، وذلك في سبيل تحقيق اعتناق زائف منها. هناك قلة من ذوي الشكيمة الفكرية والنفسية الذين ينجحون في كسر جاذبية الدوران في فلك تنظيمات مختلفاً معها وغادروا صفوفها. وهنا لا نعني أولئك الذين تبين لهم خط ما كانوا فيه يعمهون، فأصابتهم يقظة ضمير وفكر من جرّائها نحو إلى مفارقة تنظيماتهم بمثل ما يقول المثل السوداني العربي "فراق الطريقي لجمله". وحتى هؤلاء كثيراً ما يجدون أنفسهم أسرى ربة تنظيماتهم، ولا يخرجون منها إلا معاذلة. من المؤكد مما تواترت به التجارب ملاحظة سلسلة من الحالات السالبة، والتي في أفضلها يتحول الناس إلى انشاقيين؛ والانشقاقى breakaway كالمُنبت لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع. والانشقاقى هو ذلك الشخص الذي ينحو للخروج من دائرة المجموعة بوصف ذلك موقفاً احتجاجياً على ما يدور داخل المجموعة نفسها؛ بهذا لا يكون له هم سوى ما يجري داخل المجموعة وملاحقة أحداثها نقداً وتقريباً، ثم تدبج الإدانة تلو الإدانة لما يراه فشلاً ذريعاً. وبهذا تصبح المجموعة التي خرج منها وعليها محوراً لمجمل أنشطته التنظيمية والفكرية. ولهذا قلماً نجد حالات نجح فيها الانشاقيون في تكوين حركة مختلفة نوعياً وكمياً عن تلك التي انشقوا عنها. ففي أغلب الحالات ينحو هؤلاء إلى إعادة إنتاج التنظيم الذي كفروا به في تمامه لا يخفى إلا عليهم. وفي رأيي أرجع بذرة الانشقاق، والرغبة المعتملة لتحقيقه، في هذا النوع من التنظيمات إلى ما حجم القمع والقهر الذي تنطوي عليه عملية الالتزام التنظيمي في مثل هذه التنظيمات. فالالتزام فيها يقوم على كسر فردانية العضو وتدويبها في قالب جماعي صارم بدونه ربما لا يعرف العضو معنى لشخصيته. فالذين يكسرون هذا الطوق الحديدي شجعان ما في ذلك شك؛ ولكن الذين ينجحون بعد هذا في أن يعادوا سيرة حياتهم الأولى دونما أي بواقى أدوية traumatic عظام بغير شك. ولعلّ هذا هو مردّ كل ذلك الغين الذي قد نتلمسه في من فارق درب هذه الحركات ذات الطبيعة التنظيمية المافيزية (من المافيا). (أدناه سوف نقوم بمعالجة ثلاثة أنواع من التنظيمات التي رقدت بها التجربة السياسية السودانية الراهنة. وقد قسمنا هذه التنظيمات على النحو التالي: أولاً التنظيمات الطائفية (مثل حزب الأمة والحزب الاتحادي الديمقراطي)؛ ثانياً التنظيمات العقديّة، أو العقائدية، بقبول شيوع الخطأ (مثل الحزب الشيوعي وحركة الإخوان المسلمين)؛ ثم ثالثاً الأحزاب الحركية الثورية، أي التنظيمات المتطورة عن حركات حرب العصابات، مثل الحركة الشعبية لتحرير السودان، وحتى التنظيمات الإسلامية الراديكالية التي تُعرف على تسميتها بالتنظيمات الإرهابية، مثل القاعدة وخلافها.